عرض كتاب
«النقوش إسلامية»

رضوى زكي

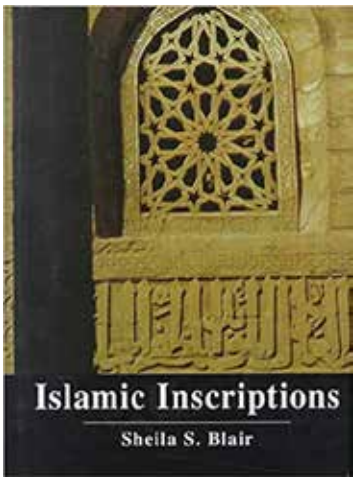

عنوان الكتاب: Islamic Inscriptions.

المؤلف: Sheila S. Blair.

دار النشر: New York: New York University Press.

سنة النشر: ١٩٩٨.

الترقيم الدولي: ٠٨١٤٧١٣٢٨٠–٩٧٨.

عدد الصفحات: ٢٣٧ صفحة.

منذ ما يزيد عن عشرون عامًا، وبالتحديد في مارس من عام ١٩٩٨، صدر عن جامعة نيويورك دراسة تعد من أساطين البحوث الأكاديمية في مجال الكتابات والنقوش الإسلامية حول العالم، والحائزة على جائزة كتاب جمعية الصداقة البريطانية الكويتية لأفضل كتاب في الدراسات الشرق أوسطية التي نشرت في بريطانيا عام ١٩٩٩؛ كتاب «النقوش إسلامية» لمؤلفته الأستاذة الدكتورة شيلا بلير Sheila S. Blair، أستاذ الفنون والعمارة الإسلامية، وصاحبة الدراسات الأكاديمية الرصينة والغزيرة في شتى مجالات الفن الإسلامي من القرن السابع الميلادي إلى العصر الحديث. وتحتل دراسة الخط العربي والكتابات والنقوش الإسلامية مرتبة مميزة في دراسات شيلا بلير، لما تمثله العناية بالقراءة والكتابة وتجويد الخط من مكانة في دين الإسلام، للحد الذي جعل من الكتابة بالحروف العربية السِّمة المميزة للثقافة الإسلامية حول العالم.

لطالما كانت دراسة النقوش الإسلامية لبنة هامة من لبنات دراسة الحضارة الإسلامية التي تزخر بتراث هائل من صنوف العلوم والمعارف والفنون، وقد صدرت عدة دراسات موسوعية في هذا المجال على رأسها موسوعة المستشرق السويسري ماكس فان برشم Max van Berchem الموسومة بعنوان «مواد لجامع النقوش العربية» Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum، ولعل أغلب تلك الدراسات المتعلقة بالنقوش الإسلامية تم تناولها وفقًا لمنهج تدوين وجمع البيانات المتعلقة بالنقوش، أو تتوسع بعض الشيء لتحليل بعض الجوانب التاريخية أو الاجتماعية أو الدينية المتعلقة بمضمون النقش المدون. ومن حيث انتهت الدراسات السابقة في هذا المجال، يبدأ كتاب «النقوش الإسلامية» منهجه بمعالجة مغايرة، فخلال هذا الكتاب، وضعت مؤلفته عصارة خبرتها السالفة في مجال دراسة الخط والكتابة العربية بهدف الخروج بمقدمة موجزة للنقوش الإسلامية، وعرض أهميتها كمصدر لا غنى عنه لفهم التاريخ والحضارة والثقافة الإسلامية.

يتألف الكتاب من أربعة أقسام متباينة في الحجم والمضمون، ويتألف كل قسم بدوره إما من فصل واحد أو مجموعة من الفصول تعالج موضوع بعينه. شرعت «شيلا بلير» في الفصل الأول من الكتاب من طرح تساؤل بعنوان «لماذا نقرأ النقوش؟».

تبدأ المؤلفة في مقدمة الكتاب بتعريف مصطلح النقش epigra-phy، وهو في الأصل لفظ لاتيني بمعني «الكتابة على»، وتتبع بصورة موجزة طبيعة النقوش الكتابية خلال العصر الروماني وفي بلاد فارس القديمة، وكذلك في البلدان الأوروبية خلال العصور الكلاسيكية والوسطى التي استخدمت فيها النقوش لتزيين واجهات المباني، مرورًا باستخدام النقوش في ديار الإسلام المدونة على العمائر والتُحف المنقولة خلال عصور الحضارة الإسلامية المتعاقبة. ومن هنا ناقشت شيلا بلير بعض أنماط النقوش الإسلامية، ومضامينها المختلفة، والأسطح المدونة عليها وبخاصة النسيج والملابس. كما أوضحت أهمية تلك النقوش في الثقافة العربية–الإسلامية انطلاقًا من حقيقة أن القراءة كانت الأمر الإلهي الأول في دين الإسلام، وأن القلم هو أول ما خلقه الله تعالى ليكتب مصائر الخلق، فكانت المكانة العظمى الذي شغلتها الكتابة والنقوش الإسلامية في الحضارة الإسلامية.

تطرقت في المقدمة كذلك لالتفات الباحثون والمستشرقون الغربيون منذ القرن الثامن عشر إلى أهمية النقوش الإسلامية ودورهم في دراستها، ثم أوضحت الغاية من كتابها الذي يستهدف المبتدئين في مجال دراسة النقوش الإسلامية سواء المدونة على العمائر أو الآثار المنقولة، والذي يساعد المؤرخين على الإفادة من النقوش الكتابية في التأريخ، ويعاون أمناء المتاحف في قراءتهم للنقوش الكتابية المدونة على التُحف، كما يمد الباحثين والأثريين بمادة مرجعية لدارسة هذا المجال من خلال استخدام قائمة المراجع التي تساهم في التوسع في مجال دراسة النقوش الإسلامية.

ويتخذ القسمان الثاني والثالث من الكتاب موقع اللب من تلك الدراسة، ويعالج كل منهما النوعان الرئيسان من أنماط النقوش الإسلامية وهما: النقوش المدونة على العمائر الأثرية والنقوش المدونة على التُحف المنقولة، وتعرض المؤلفة عبر هذان القسمان تطور المضمون والشكل الفني للنقوش وطرق تنفيذها.

تعالج المؤلفة سلسلة من الموضوعات ذات الصلة بتصنيف ووظيفة الكتابات الأثرية المعمارية المدونة على المنشآت خلال فصول القسم الثاني من الكتاب؛ بدءً من اللغات المختلفة للنقوش الأثرية المتداولة في العالم الإسلامي كالعربية والفارسية والتركية، وتعالج أنماط النقوش الإسلامية وعلى رأسها النقوش التأسيسية المرتبطة بالعمارة بصفة خاصة، وكذلك النقوش الدينية والجنائزية، وتلك المرتبطة بوقف المنشآت وشروطها وأحكامها. كما تتطرق كذلك إلى تباين استخدام النقوش الأثرية في مختلف المناطق التي سادها دين الإسلام من بلاد المغرب إلى شبه القارة الهندية، وتتناول دراسة النقوش وفقًا لأنماط العمائر الإسلامية مثل الكتابات الأثرية المدونة على المآذن على سبيل المثال، وتنتهي الباحثة بالحديث عن التطور الفني للنقوش على الآثار الإسلامية، والتي استفاضت خلاله في عرض أنماط الكتابة الكوفية المنفذة على العناصر المعمارية الإسلامية كالمداخل والواجهات.

كما قدمت شيلا بلير في القسم الثالث من الدراسة عرضًا للنقوش الإسلامية المدونة على الآثار المنقولة والتي تشمل الأشغال المعدنية والخشبية، والخزف، والمنسوجات، والملابس، وكذلك شواهد القبور، والأسلحة، والأختام، والتمائم، وأدوات الزينة، والحلي، والنقوش المدونة على الزجاج والبلور الصخري والعاج.

تتبع الفصول في كلا القسمين الثالث والرابع منهجية ثابتة في دراسة النقوش الإسلامية على الآثار الثابتة والمنقولة، فتشمل تأريخ موجز لبعض الأمثلة المختارة التي ساقتها «شيلا بلير» في كتابها، وتحليل لبعض مضامين النقوش وصياغتها، وتحديد نوع الخط، ونوع النقش طبقًا للغرض منه، متبوعًا بتفنيد وافي لمدى التشابه أو الاختلاف في أنواع الخطوط والنقوش بين أقاليم العالم الإسلامي.

واللافت للانتباه أن القسم الثالث من الكتاب لا يضم النقوش المدونة على المسكوكات أو الورق والبردي وأسطح الكتابة الأخرى كالمخطوط والرق وخلافه، وهو ما تفسره الباحثة بأن تلك الموضوعات من الأهمية بمكان لأن يفرد لها دراسات مستقلة بذاتها.

تركز المؤلفة بصورة واضحة خلال قسمي الدراسة على أهمية النقوش في التأريخ الفني للمعالم المعمارية المدون عليه النقش، سواء على المباني أو الأدوات والمنقولات، وتستخدم مضمون ومحتوى تلك النقوش للاستدلال على مختلف الجوانب التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية. على سبيل المثال، نجد إضافة علامات التشكيل على نقوش بعض الأروقة الداخلية لقبة الصخرة لا تمثل جزءً من النص القرآني المدون وحسب؛ بل كان من شأنه أيضًا زيادة القيمة الفنية والجمالية لهذا النقش، وهو ما يشير إلى أن الفنان المسلم منذ الفترة الإسلامية المبكرة كان مدركًا للقيمة الفنية والجمالية للكتابة وجمالياتها، بجانب دورها الوظيفي في المنشأة. وقد كانت

توقيعات الصُناع نوع آخر من أنواع النقوش العديدة التي درستها بلير بصورة وافية، وأتت تفسيرات جديدة حول مضمونها، وقدمت إرشادات حول معناها وأهميتها.

كما سعت الباحثة إلى ربط نقوش محددة والتغييرات في الأسلوب الخطي، أي الانتقال بالكتابة من خط إلى خط، بالدوافع السياسية خلال العصر الفاطمي. على سبيل المثال كان الخط الكوفي بأنماطه الخط الرسمي المعبر عن كيان الخلافة الفاطمية، وبدأ في الانحسار بصورة كبيرة بانتهاء حُكم الفاطميين من ديار الإسلام. هكذا تستقرأ «شيلا بلير» ما بين السطور، وتتجاوز الدراسات السالفة للنقوش الإسلامية، معتقدةً بوجود علاقة وطيدة بين التاريخ والسياسة من جهة، وبين محتوى وأسلوب النقش من جهة أخرى.

جاء القسم الرابع والأخير من هذا الكتاب ليمثل الجانب التطبيقي الذي يلي الجانب النظري في دراسة النقوش الإسلامية بعنوان «قراءة وتسجيل النقوش»، وخلال هذا القسم توجه الباحثة القارئ وترشده إلى كيفية العثور على معلومات حول نقوش محددة وتوثيق نصوص كتابية جديدة، عبر استخدام المصادر المرجعية الأساسية في دراسة النقوش الإسلامية وبادئها موسوعة «مواد لجامع النقوش العربية» Materiaux pour un corpus inscriptionum arabicarum، وكذلك موسوعة «النقوش مرتبة حسب التاريخ من الغرب للشرق» Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. كما يساعد هذا القسم من الدراسة القارئ على إيجاد وتحديد وتفسير الأنواع المختلفة من النقوش، وكيفية تسجيلها، وطرائق دراستها. فعلى سبيل المثال تتناول «بلير» كيفية دراسة الكتابات ذات المضمون الديني كالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وتفسر دلالات ارتباط كتابة آيات بعينها بعناصر معمارية محددة كالمحاريب وأبواب المساجد. وتشرح أيضًا الطرق المختلفة التي يمكن بها تأريخ النقوش الإسلامية والألفاظ الدالة عليها.

ذيّلت الباحثة دراستها القيّمة بمراجع وافية لأبرز الدراسات في مجال الخطوط والكتابة والنقوش العربية، لذلك تساهم تلك القائمة البيليوغرافية بجدارة لدافع القراءة والاستزادة من جوانب دراسة النقوش الإسلامية.

هكذا تناولت تلك الدراسة الدور الرئيسي الذي لعبته الكتابة والنقوش العربية في المنتج المعماري والفني للعالم الإسلامي، وتجاوزت القالب التقليدي المتمثل في التعريف بالنقوش الإسلامية لتتضمن تحليل لمضمون الكتابات العربية وتفسيرها، مصحوبةً بقائمة من المراجع القيّمة، والرسوم التوضيحية المتنوعة، بما يساعد على فهم الثقافة والحضارة الإسلامية عبر ١٤٠٠ عام من تاريخها الممتد، الأمر الذي يجعل من كتاب «النقوش الإسلامية» لمؤلفته «شيلا بلير» مرجعًا رئيسيًّا للمؤرخين وعلماء الآثار والباحثين للإبحار في هذا المجال.